

سلسلة مكتبة التابعية

(١)

فقهاء أهل الكنف السبع

(١) سعيد بن المسيب

تأليف

عبد المنعم الشاعري

دار ابن ثير

دمشق - بيروت

١٤٢٣ هـ - ١٩٩٣ م

## سعيد بن المسيب

هذا الرجل هو أحد الفقهاء السبعة في المدينة ويعود من كبار التابعين، وقد روى عن الصحابة الكرام، وكان سعيد بن المسيب واحداً من سبعة فقهاء عاشوا في المدينة، وجمعوا بين دقة الرواية وصدقها.

تميز سعيد بن المسيب - رحمة الله - ببراعة نافذة في تحرير الأحاديث والإفتاء بالرأي. واشتهر كذلك بالجرأة في الإفتاء. وقد قال عنه بعض معاصريه: «كنت أرى الرجل في ذلك الزمان، وإنما يدخل يسأل عن الشيء، فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس، حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب رضي الله عنه كراهة للفتيا، وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجريء»<sup>(١)</sup>.

كان سعيد بن المسيب أحد فقهاء الرأي الذي تميزت به المدينة في عصرهم، وقد استطاع تلاميذه أن يقدموا العلم للأئمة المجتهدين في الإسلام مثل الإمام مالك بن أنس رحمة الله.

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ١٨.

وقد ظهر هذا العالم كواحدٍ من الفقهاء السبعة في عصر الدولة الأموية عندما كانت المدينة دارَ أمانٍ لكلِّ العلماء، فكلَّ من جاور فيها أمنَ على نفسه وعلمه وما له وعرضه، لذلك ازدهر العلم والفقه، وكان لسعيد بن المسيب دورٌ في الحفاظ على صدق الرواية وسلامة النقل ودقة الإفتاء. كان صاحب رأيٍ يسمع ويتحصل ويقلب الأمور على كلِّ جوانبها؛ فلا يخشى في الحق لومةً لائمٍ إذ كان مفتياً جريئاً، جراءته ليست اندفاعاً وحماساً عالماً مغروراً، ولكنها جراءة الغيرة على دينه.. هذه صورة عامة وإطار شامل تتبعه بتفاصيل سيرة سعيد بن المسيب في الصفحات التالية إن شاء الله.

- ٢ -

### ملاده ونسبة

جاء جدُّ سعيد بن المسيب إلى النبي ﷺ، وكان اسمه «حزن»، فسأله النبي ﷺ ما اسمك؟

فقال الرجل: أنا حزن.

فقال النبي ﷺ: بل أنت سهل.

قال الرجل: يا رسول الله اسمُ سهاني به أبوائي فعرفت به بين الناس، فسكت النبي ﷺ.

فتعلق سعيد على ذلك قائلاً: وما زلنا نعرف الحزونة فيما

**أهل البيت<sup>(١)</sup>** (أي التَّشَدُّد والوعورة).

هكذا عاصر جد سعيد بن المسيب الرسول ﷺ من خلال هذه الرواية التي رواها سعيد نفسه عن جده. إذن فمن هو سعيد بن المسيب؟

هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو<sup>(٢)</sup>، إلى أن ينتهي نسبه إلىبني مخزوم من بطون قريش، إذن فلقد كان سعيد قرشياً مخزومياً.

وفد سعيد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقيل إنه ولد بعد أن استخلف عمر بأربع سنين، وفي رواية أخرى: ولد قبل موت عمر بستين.

وقد قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه في ذلك: «ولدت لستين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكانت خلافته عشر سنين وأربعة أشهر».

- ٣ -

### **علمه وفقهه**

وقد ذكر في كتب السيرة أن سعيد بن المسيب سمع من عمر، إلا أنها نظن أنه قد سمع من راوٍ عن عمر ولم يسمع بنفسه إذ كان عمر قد مات بعد ميلاده بثمانين سنين وأربعة أشهر حسب

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١١٩ ترجمة سعيد بن المسيب.

روايته السابقة . ولكن سنرى فيما بعد أن سعيد بن المسيب ذاته يقول : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر مني ، بل قال وكل قضاء قضاه عمر مني .

ويعد سعيد بن المسيب من أعلم علماء المدينة في عصره ، وقد أخذ علمه عن كبار صحابة رسول الله مهاجرين وأنصاراً ، وفي ذلك يقول : أخذت علمي عن زيد بن ثابت .

وقد أخذ سعيد بن المسيب علمه أيضاً من مجالس كبار الصحابة ، فجاء سعد بن أبي وقاص وابن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

ودخل على أزواج النبي : عائشة أم المؤمنين وأخذ عنها الفقه والعلم تبعاً بقول رسول الله : خذوا دينكم عن هذه الحميراء (يقصد عائشة) ، وام سلمة زوج النبي ﷺ .

وسمع سعيد بن المسيب من عثمان بن عفان وعلي وصهيب ومحمد بن سلمة ، وقد قيل عن سعيد بن المسيب إنه راوية عمر رضي الله عنه؛ لأنَّه كان أحفظ الناس لاحكامه وأقضيته .

من كل هذا الجمع الغفير من ذوي الرأي والعلم أصبح سعيد بن المسيب فقيهَ المدينة الأولى ، وعُدَّ ضمن أشهر سبعة فقهاء فيها؛ حتى إنه يُفتى وأصحاب رسول الله ﷺ أحياه<sup>(١)</sup> .

---

(١) أعلام الموقعين ج ١

وقد قال أحد معاصريه: «كان رأس من بالمدينة في دهره المقدم عليهم في الفتوى سعيد بن المسيب<sup>(١)</sup>

كان رحمة الله أفقه الفقهاء، وأعلم الناس بما تقدمه من الآثار، وأفقيهم في رأيه حتى إن الناس كانوا يجيئون إلى المدينة، فيسألون عن أعلم علمائها، وأفقه فقهائها، فيلدهم الناس إلى سعيد بن المسيب ليسألوه ويستفتوه.

وقد كان سعيد بن المسيب مكانة عظيمة عند عمر بن عبد العزيز، لما هو عليه من علم وتقى، وحصافة رأي، واجتهاد عالم؛ حتى إنه كان لا يقضى بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب، وكان يقول عنه: «ما كان بالمدينة عالم إلا يأتيني بعلمه، وأوتني بما عند سعيد بن المسيب».

وذات يوم أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى سعيد بن المسيب يسأله عن مسألة فقهية، فجاء سعيد مع الرسول حتى دخل على عمر بن عبد العزيز.

فقال عمر باسمه: أخطأ الرسول يا سعيد، إنما أرسلناه  
يُسأل في مجلسك.

هكذا كان عمر بن عبد العزيز يجعل هذا العالم، ويشفي على علمه وفقهه.

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٢١.

وقد أصبحت هذه المكانة العلمية لسعيد بن المسيب لذاكرته الحافظة الوعية، والتي يبدو عليها ذكاء شفاف، فها هو يقول لأحد أصحابه: «لقد جلس أبوك إلى في خلافة معاوية فسألني عن كذا وكذا فقلت له كذا وكذا»<sup>(١)</sup>.

وقد قال عنه عمران بن عبد الله الخزاعي أحد معاصريه: «والله ما أراه مر على ذنه شيءٌ قطٌ إلا وعاه قلبه».

تلك هي شهادة معاصريه عن ذاكرته وحفظه، وقد اعتمد العلم في عصره على الذاكرة، فلم تكن هناك كتابة ولا كتب تقرأ، وإنما كان مصدر العلم الوحيد هو مجالس الدرس والسفر إلى حملة العلم والفقه، والنيل من رواياتهم وعلمهم، وبعد ذلك ينمو الرأي والاجتهاد والقياس، ويتحقق كل هذا بالإجماع ودقة الرواية وصدق الرواوى.

#### - ٤ -

#### بعض من صفاته ومظهره

كان يجلس في المسجد صائماً يحدث الناس، فإذا غابت الشمس أتي بشراب من منزله إليه بالمسجد فشربه، لا يطلبه من أحد شيئاً لنفسه.

وعلى راحلته كان يقرأ القرآن ليلاً فيكثر من القراءة.

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٤٢.

ومن شمائله أنه كان نظيفاً في مظهره، أنيقاً في ملبيه؛ فقد وصفه أحد معاصريه : بأنه لا يدع ظفره بطول ، ويُحفي شاريه شبيهاً بالحلق ، ويصافح كل من لفته، كان جاداً متربناً يكره كثرة الضحك، يتواضأ كثيراً.

وفي بيته كان لا يحب أن يسمى أبناءه بأسماء الأنبياء وكان يكثر صلاة التطوع النوافل ، أما لباسه فهو من البرود الغالية البيض .

كان سعيد بن المسيب لا يخاصم أحداً، ولو أراد إنسان رداءه رمى به إليه ، وفي بيته أيضاً كان يربى ذريته على التقوى، فها هو يمنع ابنته من اللعب ببنات العاج ويسمح لها باللعب بما يناسب هذا البيت الإسلامي المبارك .

كان فقيهاً واعياً، فقد جاءه عبد الرحمن بن حرمدة أحد أصحابه وسأله قائلاً : وجدت رجلاً سكران ، افتراه يَسْعَى ألا أرفعه إلى السلطان؟!

فأجاب سعيد: إن استطعت أن تستره بشوبك فاستره، فلما أفاق الرجل استحرى من فعلته وقال: والله لا أعود له أبداً.

كان يقول عن العبادة: «إنما العبادة التفكير في أمر الله والكف عن محارم الله» وكان يجلس في مسجد رسول الله في رمضان فيؤتي بالأشربة من بيته في مسجد النبي عليه السلام فليس أحد يطبع أن يأتي سعيد بن المسيب بشراب فيشربه، فإن اتى من

متزلاً بشرابٍ شربه وإن لم يُؤتَ من متزلاً بشيءٍ، لم يشرب شيئاً حتى ينصرف<sup>(١)</sup>.

مما سبق نشعر بأن الرجل كان زاهداً في مال غيره، يحب أن يأكل من ماله ولا يسأل الناس إلحاضاً؛ إنما هو غني بقناعته وما وهبه الله من رزق، وهل يقال أو يؤثر غير هذا عن عالم وفقيه من فقهاء المدينة السبعة.

رأيه في النساء: كان يقول: ما خفتُ على نفسي شيئاً مخافة النساء.

وها هي مقولته تتحقق فعندما اختلف مع خلفاء بنبي أمية وكان يُضرب، قالت له امرأة: لقد أقمت مقام خزية! فأجابها على الفور: «من مقام الخزية فررت»<sup>(٢)</sup>.

يريد أن يقول لها إنني فررت من خزي هولاء إلى عزة رأي؛ لأنَّه كان يأخذ عليهم الكثير من المواقف فلم يبايعهم. وستعرض محته معهم في سيرته هذه.

وإذا عدنا إلى مظهره فإنَّا نجد أنَّ كتب السيرة قد ذكرت أنه كان شديد الاعتناء بمظهره، فكان يعتم وعليه قلنوسوة لطيفة بعمامة بيضاء لها علم أحمر يُرضيها وراءه ثبراً، وكان يخرج

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٣٥.

(٢) العقد الفريد لأبي عبد الله ج ٣ ص ١١٥.

بهذا المظهر في الفطر والأضحى ، وكان يصفر لحيته في كبره ؛  
فقد كان أبيض الرأس واللحية رحمة الله .

قصدنا بهذا الإطار المختصر من صفاتة ومظاهره أن نعيش  
لحظات معه كمظهر وقدوة في الصفات والشمائل ، ولكن يبقى  
لنا معه شيء هام وهو فقهه وفكرة . بعد أن يفرض لخلافه  
ومحته مع الأمويين الذين أودعوه السجن وضربوه بسببها  
بساط . ترى لماذا يتعرض عالم وفقهه اشتهر بعلمه لهذه  
المهانة في نفسه وجسده ؟ هل كان علمه السبب أم تقواه  
وحرصه على أن يقول كلمة حق في وجه سلطان جائر ؟

- ٥ -

### محنته مع الأمويين

كان لدى الشيخ سعيد بن المسيب ابنة من أحسن النساء ،  
وأكثرهم أدباء ، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأعرفهم  
بحق الزوج ، وقد طلب الخليفة عبد الملك بن مروان أن  
يزوجهها لابنه الوليد بن عبد الملك فأبى سعيد أن يزوجه بها .  
ويبدو أن هذا الموقف الشخصي قد جعل جفوة بين الرجلين  
الوالى والفقهى سعيد بن المسيب ؛ لأنه لم تمضِ فترة طويلة  
على ذلك حتى جاء رجل فقير يدعى كثير بن أبي وداعه ، وطلب  
أن يتزوج ابنة سعيد بن المسيب فوافق الرجل على الفور ،  
وزوجه إياها على درهمين فأرسل إليه بخمسة آلاف درهم وقال  
له : استنفق هذه ، أى خذها وأنفقها على نفسك وزوجك .

وفي المساء قال سعيد بن المسيب: جهزني ثيابك وشدّي عليك حاجتك ثم اتبعيني، فجهّزت ابنته ثيابها فقال لها: صلّي ركعتين، فصلّت، ثم صلّى هو ركعتين أيضاً، وبعد أن فرغ من الصلاة هو وابنته أرسل إلى «كثير بن وداعه»، فجاءه على الفور فوضع يدها في يده وقال: انطلق بها.

انطلق كثير بزوجته إلى داره فلما رأتها أمه قالت: من هذه؟  
قال: امرأتي ابنة سعيد بن المسيب دفعها إليّ.

فنظرت إليها أمه وقد وجدتها على حالها لم تأخذ زينة العروس من جلوتها، فقالت بحماس الأم لابنها ليلة عرسه: فإن وجهي من وجهك حرام إن أفضيت إليها حتى أصنع بها صالح ما يُصنع بنساء قريش، فتركها إلى أمه، فأصلاحت من شأنها، ثم بني بها<sup>(١)</sup>.

ذكرنا أن جفوة صارت بين عبد الملك بن مروان وفقيه المدينة سعيد بن المسيب بسبب قصة زواج ابنته، ولكن لو رجعنا إلى أسباب هذا الرفض من سعيد بن المسيب لأن يكون الوليد زوجاً لابنته لوجدنا أنه كان لا يستريح كثيراً لأسلوب بني أمية في الحكم. وقد جاءت روایات كثيرة تدل على ذلك، بل

(١) جاءت الرواية بأحداثها كما هي: البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ ص ١٠٦، طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٣٨، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه ١١٥/٣.

وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ فِي دَمْشِقٍ؛  
حِيثُ كَانَتِ الْخِلَافَةُ جَفْوَةً لَا يُسْتَطِعُ أَحَدٌ مِّنْهُمْ أَنْ يَخْقِبَهَا.

فَقَدْ قَدِيمٌ عَبْدُ الْمُكْرَمِ بْنُ مَرْوَانَ الْمَدِينَةَ فَامْتَنَعَ عَنِ الْقَائِلَةِ  
وَالنَّاسِ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِّنَ الْعُلَمَاءِ؛ فَاسْتَيْقَظَ، وَقَالَ  
لِحَاجِهِ: انْظُرْ هَلْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدٌ مِّنْ حَدَائِنَا مِنْ أَهْلِ  
الْمَدِينَةِ؟

فَخَرَجَ الْحَاجِبُ إِذَا بِسَعِيدِ بْنِ الْمُسِبِّبِ فِي حَلْقَةِ دَرْسِهِ فِي  
الْمَسْجِدِ، عَاكِفًا عَلَى الدَّرْسِ مَعَ تَلَامِيذهِ فَتَقَدَّمَ الْحَاجِبُ  
حِيثُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَرَاهُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسِبِّبَ، فَغَمَرَ لَهُ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ  
بِإِصْبَاعِهِ، ثُمَّ وَلَى فَلَمْ يَتَحَرَّكْ سَعِيدٌ وَلَمْ يَتَبَعَهُ، فَظَنَّ الْحَاجِبُ  
أَنَّهُ نَسِيَ، أَوْ لَمْ يَلْحِظْ إِشَارَتَهُ.

فَجَاءَ وَاقْتَرَبَ مِنْهُ، ثُمَّ غَمَرَهُ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ قَائِلاً: أَلَمْ تَرَنِي  
أَشَيْرُ إِلَيْكَ؟

قَالَ الشَّيْخُ: وَمَا حَاجَتَكَ؟

قَالَ: اسْتَيْقَظَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: انْظُرْ هَلْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدٌ  
مِّنْ حَدَائِنِي، فَأَجِبَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: أَرْسَلْكَ إِلَيَّ؟

قَالَ الْحَاجِبُ: لَا وَلَكِنْ قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ بَعْضَ حَدَائِنَا مِنْ  
أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَلَمْ أَرْ أَحَدًا أَهْيَا مِنْكَ.

فقال الشيخ سعيد بن المسيب: اذهب فأعلمك أني لست من حداده.

فخرج الحاجب وهو يقول: ما أرى هذا الشيخ إلا مجئونا، ثم جاء إلى عبد الملك بن مروان وقال له: ما وجدت في المسجد إلا شيخاً أشرتُ إليه فلم يقم فقلت له: إن أمير المؤمنين قال: انظر هل ترى في المسجد أحداً من حدادي، فقال لي: لست من حدادي أمير المؤمنين، وقال لي: بلغ هذا إلى أمير المؤمنين.

نظر عبد الملك بن مروان إلى حاجبه وهو رأسه قائلاً: «ذاك سعيد بن المسيب نوعه و شأنه»<sup>(١)</sup>.

على أن هذه الجفوة بلعت ذروتها عندما خرج عبد الملك من داره غاضباً عندما عاد الرسول إلى سعيد يكرر: أجب أمير المؤمنين فقال: لعلك أخطأت باسمي أو لعله أرسليك إلى غيري.

فعاد الحاجب وأخبر أمير المؤمنين فغضب وهم به، فتكلّم الناس على عبد الملك بن مروان وقالوا له: يا أمير المؤمنين، فقيه أهل المدينة وشيخ قريش وصديق أبيك لم يطعم ملك قبلك أن يأتيه، وما زالوا به حتى تركه وشأنه.

---

(١) للاستراحة انظر طبقات ابن سعد وتاريخ ابن كثير.

وبلغ الأمر ذرته عندما توفي عبد العزيز بن مروان شقيق أمير المؤمنين بمصر في جمادى سنة أربع وثمانين من الهجرة، وكانت له البيعة بعد عبد الملك، عند ذلك عقد عبد الملك بن مروان لابنته الوليد وسليمان بولاية العهد، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان والأمصار التي هي تحت حكم أمير المؤمنين، وكان والي المدينة في هذه الأيام هشام بن إسماعيل المخزومي، وبعد من أبناء عمومه سعيد بن المسيب فقيه المدينة لأنه قرشي ومخزومي مثله، فدعا هشام الناس إلى البيعة لهما، فبائع الناس، وتوجه إلى سعيد بن المسيب ودعاه أن يباع لهما فرفض قائلاً: أمهلني حتى أنظر في أمر بيعتني لهؤلاء؛ فغضب هشام ولم يمهله وقال: ائتوني بسوط، فجاؤوا بسوط وضرب الشيخ سعيد بن المسيب ستين سوطاً، وطاف به في المدينة قليلاً، وكلما طلبوا منه البيعة قال: لا أباع وعبد الملك حتى لأنه كان لا يرضى عن الاستخلاف بالوراثة دون الشورى، فواصل هشام ضربه ضرباً مبرحاً، وألبه كاء من شعر خشن، وأرسله إلى مكان في المدينة يسمى «الثنية» كان يُصلب ويقتل فيه العصاة، فلما وصلوا إلى هناك عادوا به مرة أخرى.

قال سعيد بن المسيب: أين تكررون بي؟

قالوا: إلى السجن.

قال: والله لو لا أني ظنت أنه الصليب أو القتل ما لبست هذا

البيان أبداً، فردهه إلى السجن وتم حبسه. وكتب هشام إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما كان من سعيد بن المسيب.

وقد حمل الكتاب إلى أمير المؤمنين عبد الملك رجل يدعى قبيصة بن فويق، فلما دخل على عبد الملك وقدم له رسالة هشام، وقال قبيصة:

يا أمير المؤمنين يفتات عليك هشام بعثة هذا، يضرب ابن المسيب ويطوف به، والله لا يكون سعيداً أبداً أمحل ولا ألح منه حين يضرب (أي أكثر عناداً)، لو لم يباع ما كان يبيعك منه، ما سعيد ممن يخاف بطشه<sup>(١)</sup>، ولا يخشى منه على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة.

ثم أضاف قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك.

فقال عبد الملك بن مروان: اكتب أنت إليه تخبره برأيي فيه، وأن هشاماً خالفني عندما ضربه وسجنه.

فكتب قبيصة ما طلب منه عبد الملك إلى الشيخ سعيد بن المسيب. فلما جاءه الكتاب وقرأه قال: الله يبني وبين من ظلمني.

أودع الرجل السجن، لكن عوامل معاملة طيبة، إجلالاً لعلمه وفقهه، وهذا أحد معاصريه يقول: دخلت على سعيد بن

---

(١) يقصد هشام المخزومي.

المسِب السجن؛ فإذا هو قد ذُبحت له شاة فجعل قروها على  
ظهره، ثم جعلوا له بعد ذلك قضائياً رطباً.

وكان كلما نظر إلى عضديه - أي مكان ضرب السياط  
وندويها وجراحتها - قال: اللهم انصرني من هشام.

ولما كان في السجن كانت ابنته ترسل له طعاماً. وذات يوم  
صنعت طعاماً كثيراً يزيد عن حاجته وبكمي عدّة أشخاص،  
فدعى أحد مواليه وهو أسلم أبو أمية وقال له: اذهب إلى  
ابتي فقل لها لا تعودي لمثل هذا أبداً، فهذه حاجة هشام بن  
إسماعيل يريد أن يذهب مالي فاحتاج إلى ما في أيديهم، وأنا  
لا أدرى ما أحبسُ، فانظري إلى القوت الذي كنت آكل من  
بيتي فابعثي إلى به. فكانت تبعث إليه بذلك.

واستمر الشيخ في السجن يعاني مما فيه من وحدة وظلم  
وظلام؛ حتى جاءه ذات يوم رجل<sup>(١)</sup> فجعل يكلمه ويقول:  
إنك خرقت به (أي خالفت أمره).

فقال سعيد: يا أبا بكر أتق الله وأثيره على ما سواه.

فجعل أبو بكر يردد عليه أنه خالق هشاماً وتجاوز معه.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٢٧ طعة دار صادر - والرجل هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

فجعل سعيد يقول أيضاً: إنك والله أعمى البصر أعمى  
القلب.

فخرج أبو بكر من عنده، وأرسل إليه هشام بن إسماعيل؛  
فلما جاءه قال له: هل لأن سعيد بن المسيب منذ ضربناه؟

فقال أبو بكر: والله ما كان أشدّ لساناً منه منذ فعلت به ما  
فعلت فاكفف عن الرجل.

ولما جاء خطاب عبد الملك بن مروان لهشام يقول فيه: ما  
حرّك لو تركت سعيداً ووطئت ما قال؟!

عند ذلك ندم هشام على ما فعل بسعيد؛ فخلى سبيله،  
وعاد سعيد بن المسيب إلى دروسه وبين تلاميذه ومربييه.

وكان بعد محنته دائم القول: «ما يشن الشيطان من شيء من  
قبل النساء ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت  
أنفسها إلا بمعصية الله تعالى، كفى بالمرء نصرة من الله عزّ  
وجل له أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله».

كانت كلماته لتلاميذه، توجيهاً صحيحاً. يعمّ توجيه الزاهد  
التقي الإمام سعيد بن المسيب الذي قال: «من استغنى بالله  
افتقر الناس إليه، الدنيا نذلة»<sup>(١)</sup>، وهي إلى كل نذل أميل،  
وانذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها.

---

(١) نذلة: حقيقة.

كان الإمام سعيد بن المسيب مثلاً في التواضع والخشوع لله عز وجل، وقد عبر عن هذه الصفة في نفسه بقوله: «إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه. من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله»<sup>(١)</sup>.

كان سعيد بن المسيب يملك مالاً يتجر فيه ويقول: اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلاً ولا حرضاً عليه، ولا محابة للدنيا ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بنى هروان؛ حتى ألقى الله فيحكم في وفيهم، وأحصل فيه رحمي، وأؤدي منه الحقوق التي فيه، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجبار». هكذا حذر سعيد بن المسيب دور المال في حياته، وفي أعقاب محنته فيه ونصرته على من ظلموه بعدم حاجته إليهم، وإخراج حقوق الله من هذا المال.

ولم ينس سعيد بن المسيب اليتامي والمساكين وحقوق الجبار والأرامل. إنها تاسیع عالم وفقيه حاور رسول الله واقرب من صاحبته فتربي بسلوكهم ونشأ على منهجهم.

---

(١) للاستزادة انظر تاريخ ابن كثير ج ٥ ص ١٠٦.

## قبل أن نودع السيرة

إن سيرة الإمام سعيد بن المسيب لهي درس عطر، نستنشق من روضه عبر التقوى، وقبل أن نتركه مودعين لا بد من جولة وإطار عام للدور هذا الرجل الفقهي، فقد جاء في أعلام الموقعين<sup>(١)</sup>: «أنه لما مات العبادلة، وهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، فكان فقيه مكة عطاء بن أبي رباح، وفقيه اليمن طاوس، وفقيه أهل البشارة يحيى بن كثير، وفقيه أهل البصرة الحسن رضي الله عنه، وفقيه أهل الشام مكحول، وفقيه مكة عطاء الخراساني، إلا المدينة، فإن الله خصها بقرشي، فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب غير مدافع».

لقد انتصرت لهذا الفقيه إلى الفقه انتصاراً تاماً، ولم يهتم إلا به، وأخص ما كان يطلب قضايا رسول الله ﷺ، وقضايا أبي بكر، وعمر، وأخذ أسطر علمه عن يزيد بن ثابت وعن أبي هريرة حمزة، لأن سعيد بن المسيب زوج ابنته<sup>(٢)</sup>.

كانت عناته في الحديث بمعرفة أقضية النبي ﷺ، وعناته

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ١٨ - ٢٠.

(٢) انظر ترجمة مختصرة جاء بها الإمام محمد أبو زهرة في كتابه مالك ص ١٢٩ وما بعده.

بالآثار بأقضية الخلفاء واجتهاداتهم، ولقد بُرِزَ سعيد بن المسيب في روايته عالماً بفقه الصحابي الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأن عصر عمر هو من أزهى عصور الفقه الإسلامي والقضاء والإفتاء لاتساع رقعة الدولة، وحدوث الحوادث التي اقتضت ذلك الفقه وهذه الأقضية وتلك الفتاوي.

كان سعيد بن المسيب رضوان الله عليه يجتهد فيما يعرض عليه من أسئلة في وقائع لم يجد فيها نصاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، أو قضاء صحابي من الصحابة، أو فتوى يقيس عليها، كان يفتى برأيه، حيث لا خروج عن الحق، ولا انحراف أو ضلال، ولذلك أخذ عنه من كان يفتى بجراءة حيث يتھب غيره من الفقهاء الفتيا.

وخلاصة القول قبل أن نترك السيرة مودعين سعيد بن المسيب؛ أنه إذا كان كما ذكرنا آنفاً فهو كأمام فقهاء المدينة في عصر التابعين، لم يكن يمتنع عن الرأي إن وجدت الحاجة، وكان رأيه هذا يقوم على أساس صحيحة محكمة مدعاة من روح القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ. هذه شهادة وردت من أحد المفكرين<sup>(١)</sup> في حق سعيد بن المسيب فقيه المدينة، ولنا جولة بعد هذا الإطار في أمثلة من علم وفقه سعيد بن المسيب.

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية.

يقول الرسول ﷺ في حديث شريف «فَلَيَمْعِدْ بَيْتَكَ» وهذا سعيد بن المسيب ينتهج المنهج نفسه فيقول: «ما أظلني بيـتـ بالـمـدـيـنـةـ بـعـدـ مـنـزـلـيـ إـلـاـ أـنـيـ آـنـيـ اـبـنـ لـيـ فـأـسـلـمـ عـلـيـهـاـ أـحـيـانـاـ»<sup>(١)</sup>.

وفي صلاته كان الخشوع سلاحه وعنوانه، فعندما يُسأله بُرْد مولى سعيد بن المسيب عن صلاته فيقول: «فَإِنَّمَا صَلَاتِهِ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ عَرَفَنَا هَا - أَيُّ يَعْرَفُهَا النَّاسُ - أَمَّا فِي بَيْتِهِ فَإِنَّهُ لِيَصْلِي صَلَةً كَثِيرَةً إِلَّا أَنَّهُ يَقْرَأْ بِصَنْ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ».

كان لا يتكلم في صلاة الجمعة حتى يفرغ من صلاته وينصرف الإمام، ثم يصلى ركعات، ثم يقبل على جلساته ويسأله.

## - ٧ -

### وداعاً فقيه المدينة

استمر الشیخ في مجلسه عشرات السنین مفتیاً وعالماً ينهل من علمه تابعوه ومحبوه من أهل دار الهجرة وغيرهم؛ ومن يجيئون لزيارة الروضة الشريفة، ويلقون السلام على رسول الله في مدینته المنورة.

ولما كان لكل بداية نهاية فقد تهدمت السنون، وخارت القوى، وضفت الثقنان السمع والبصر، ومرض الفقيه الشیخ

(١) طبعات ابن سعد ج ٥ ص ١٣٢.

سعيد بن المسيب واشتد مرضه، واشتكى فاشتد وجعه؛ فدخل عليه نافع بن جحير بن مطعم يعوده في مرضه فاغمى عليه، فقال نافع بن جحير: **وَجْهُوا فِرَاشَهُ إِلَى الْقَبْلَةِ**، فوجهوا فراشه إلى القبلة، فلما أفاق قال: **مَنْ أَمْرَكُمْ أَنْ تُحَوِّلُوا فِرَاشِي إِلَى الْقَبْلَةِ؟**  
**أَنَّا فَعَلَّمْنَا بِنْ جُبَيْرٍ أَمْرَكَمْ؟**

فقال نافع: نعم، فقال سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة لا ينفعني توجيهكم لفراشي.

ثم قال وهو في فراش المرض: إذا مت فلا تضرروا على قبري قسطاطاً، ولا تتبعوني ب النار، ولا تؤذنوا بي أحداً، حسبي من يبلغني ربّي ولا يتبعني راجزهم هذا. ثم أضاف: حسي أربعة يحملونني إلى ربّي، ولا تتبعني صائحة تقول في ما ليس في. ونظر إلى دنانير كانت عنده وقال: اللهم إنك تعلم أنّي لم أتركها إلا لأصون بها حسي وديني.

وفي موكب الصديقين صعدت روح الفقيه إلى بارئها، وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك بالمدينة في العام الرابع والتسعين<sup>(1)</sup> من الهجرة وكان عمره خمسة وسبعين عاماً. رحم الله سعيد بن المسيب فقد كان جاماً، ثقةً، كثير الحديث، ذِيَّتاً، فقيهاً، مفتياً، مأموناً، ورعاً، عالياً، رفيعاً.

(1) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٤٣، البداية والنهاية لابن كثير ج ٥.